مجلّة الواحات للبحوث والدراسات
ردمد 7163- 1112 العدد 18 (2013) : 257 – 270
http://elwahat.univ-ghardaia.dz

الاستشراف والتخطيط المستقبلي في السيرة النبوية: صلح الحديبية أنموذجاً

صالح بن أحمد البوسعيدي
جامعة السلطان قابوس، سلطنة عمان

مقدمة

الحمد لله العزيز الحكيم، بيده الملك يعز من يشاء ويذل من يشاء، والصلاة والسلام على سيدنا محمد أحسن الناس سيرة وأصفاهم سريرة، وعلى آله وصحبه أجمعين، وعلى التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين،

أما بعد:

فإن صلح الحديبية يعتبر علامة فارقة وتحولاً جذرياً في مسيرة الدعوة الإسلامية التي قادها رسول الله ﷺ، فإذا كانت الهجرة بداية لقيام الدولة الإسلامية في المدينة فإن صلح الحديبية كان بداية لرسوخ تلك الدولة وامتداد جذورها بانتشار دعوتها ليس إلى أقاصي الجزيرة العربية كعمان والبحرين فحسب، بل إلى خارجها، إلى بلاد الروم والفرس ومصر.

لقد كان في صلح الحديبية (الذي وصفه الله تعالى بالفتح العظيم) فوائد جليلة للمسلمين لم يدركوها في حينه ولكن الرسول ﷺ الذي كان كأنما ينظر إلى وراء الغيب من ستر رقيق مدركاً بتسديد من الله تعالى حاجة المسلمين لهذا الصلح، ومتوقعاً للفوائد العظيمة التي سيجنونها منه في الأمد القريب قبل البعيد.

وقد تعرض لإجمال تلك الفوائد عدد من الكتاب في كتبهم حول السيرة النبوية، كالمباركفوري في (الرحيق المختوم) ود.محمد سعيد البوطي في (فقه السيرة النبوية).

وفي هذا البحث المتواضع أردنا أن نستجلي بتفصيل أكثر تلك الفوائد التي عادت على الدعوة الإسلامية بالخير العميم، محاولين أن نستقري الأحداث التي سبقت الصلح والتي تلته، لنفهم كيف نظر الرسول ﷺ إلى هذا الصلح؟ وكيف استفاد منه؟ والنتيجة التي آل إليها؟.

ونورد من الأحداث التاريخية أهمّها دون استطراد لنفسح المجال للدراسة والتحليل.

فإن وفقنا الله عز وجل فله المنة والفضل وحده، وإن كانت الأخرى فنسأله سبحانه أن يغفر خطايانا وييسر لنا أمورنا. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

المبحث الأول: الوقائع التاريخية.

المطلب الأول: الأحداث التي سبقت صلح الحديبية (غزوة الأحزاب وما أفرزته من واقع سياسي وعسكري).

في مكة، ضايق المشركون رسول الله ﷺ ومن آمن معه من المسلمين حتى اضطروهم للهجرة إلى المدينة، وبعد الهجرة أمل الرسول ﷺ ومن معه أن تكف قريش عنهم فتدعهم ودعوتهم، إلا أن طبيعة قريش التي ترى نفسها الزعيمة الدينية للعرب والحارسة لمقدساتهم أبت عليهم ذلك فأخذوا يهددون المسلمين بأنهم سيلاحقونهم إلى المدينة للقضاء عليهم بل أنهم راسلوا أبياً بن أبي سلول (الذي بقي مشركاً ولم يدّع الإسلام إلا بعد معركة بدر) للإعراب له عن تعاطفهم معه واستعدادهم للتحالف معه.

هذا الأمر جعل الطرفين (المسلمين وقريشاً) في حالة حرب مفتوحة نتج عنها في ثلاث سنين – إضافة إلى عدد من المناوشات-معركتان أساسيتان: بدر وأحد، وفي حين انتهت الأولى بهزيمة منكرة لقريش كانت الحرب الثانية رد اعتبار لهم.

وفي السنة الخامسة للهجرة[1] سعى يهود بني النضير -الذي كانوا يقيمون في خيبر بعد إجلائهم الرسول من المدينة نتيجة نقضهم لعهد السلام الذي أبرمه الرسول ﷺ معهم حين هاجر إلى المدينة

– لحشد الجيوش لقتال المسلمين والقضاء عليهم.

سعى اليهود لأن يجمعوا أكبر تحالف ليس لهزيمة المسلمين فحسب، بل للقضاء على الدعوة الإسلامية قضاء تاماً، فذهبوا إلى قريش الذين سارعوا للاستجابة، ثم ذهب اليهود إلى قبائل عربية أخرى وهي: غطفان وبنو سليم وبنو أسد وفزارة وأشجع وبنو مرة[2] واستطاعوا إقناعهم للانضمام للتحالف، وحينها اجتمع تحالف يضم أكثر من

عشرة آلاف مقاتل توجهوا جميعاً لمقاتلة المسلمين.

كانت استخبارات المدينة قد علمت بأمر التحالف العسكري الذي عقد بين قريش في جنوب المدينة المنورة وخيبر في شمالها، وكان هدف هذا التحالف جعل الدولة الإسلامية بين طرفي الكماشة ثم إطباق فكيها عليها وإنهاء الوجود الإسلامي فيها[3]، وحين استشار الرسول ﷺ أصحابه كما عودهم، أشار عليه سلمان الفارسي بحفر خندق حول أجزاء من المدينة المنورة، فأعجب الرسول ﷺ بالفكرة خاصة وأن طبيعة المدينة تتلاءم مع هذا التكتيك الجديد، لأن المدينة محاطة بالجبال وبالأرض الوعرة التي يصعب اختراقها، ما يعني أن المسلمين كانوا في حاجة إلى حفر الخندق حول أجزاء من المدينة وليس حولها كلها.

وحين جاء المشركون فوجئوا بالخندق ووجدوا أنفسهم أمام تكتيك حربي جديد لا عهد للعرب به، فقد كانوا يظنون أنهم سيشنون حرباً سريعةً يستطيعون الانتصار فيها لتفوقهم في العدد والعتاد.

حاول المشركون اقتحام الخندق فلم يستطيعوا، وعاش المسلمون لحظات عصيبة فاصلة في مسيرة دولتهم الوليدة، فهم محاصرون من كل الجهات، ومما زاد الأمر سوءاً نقض يهود بني قريظة لعهدهم مع المسلمون وانضمامهم إلى التحالف الآثم، وهذا جعل المسلمين يخشون من أن يدخل المشركون المدينة من جهة بني قريظة، وقد وصف الله تعالى هذه اللحظات الحاسمة بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا، إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا، هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا﴾ الأحزاب:9-11.

وأخيراً -بتوفيق من الله تعالى -نجحت خطة المسلمين، فوجد المشركون أنفسهم في بلاء شديد، فلا هم قادرون على دخول المدينة وليس في يدهم حل آخر، ونفدت مؤونتهم وأصابهم الضجر وأرسل الله عليهم ريحاً قوية شديدة البرودة اقتلعت خيامهم وكفأت قدورهم، وحينها أمر أبو سفيان جنوده بالانسحاب فانسحبوا ليلاً بغير نظام[4].

وبذلك انتهت هذه المعركة التي حشدت فيها قريش أقصى ما تستطيع وألقت فيها بكل ثقلها ولكن الله تعالى رد كيدهم في نحرهم فرجعوا خائبين مهزومين، غير أن الرسول ﷺ كان يرى في الأمر جانباً آخر فهو يدرك ما أفرزته هذه المعركة من وقع سياسي وعسكري يمكن تلخيصه في النقاط التالية:

1. أبرزت هذه المعركة الواقع الضعيف للمسلمين من الناحية العسكرية فهم محاطون بالأعداء من كل الجهات: قريش في الجنوب وخيبر في الشمال والقبائل العربية في بقية الجهات، والتحالف الذي حدث يبين أن هؤلاء الأعداء رغم اختلافهم في الدين والنسب إلا أن تحالفهم على المسلمين أمر ممكن، وتحالفهم يؤدي إلى خطر جسيم على المسلمين، وعليه فلم يكن من الممكن أن يسمح الرسول ﷺ بتكرار هذا التحالف واستمراره.

2. كما أبرزت معركة الخندق عدم وجود متنفس قوي للمسلمين خارج المدينة، فلو كان للمدينة امتداد خارجها بانتشار الإسلام في عدد من القبائل لكان من الممكن الاستعانة بهم لفض الحصار عن المدينة أثناء معركة الخندق.

3. كذلك أظهرت هذه المعركة وما سبقها من معارك ما يمكن أن تسببه الحروب (خاصة مع قريش) من شغل للمسلمين عن مهمتهم الأساس وهي الدعوة إلى الله تعالى ونشر دينه ليبلغ كل الناس، ومن هنا فقد كانت الحاجة داعية لهدنة مع قريش.

4. أيضاً أوضحت هذه المعركة ما يمكن لقريش أن تفعله، فهي رغم ضعفها ما تزال القبائل العربية تعتبرها الزعيمة الدينية لها، وهم على استعداد للاستجابة لها إذا ما دعتهم للتحالف معها على المسلمين.

لأجل كل هذه الأمور وغيرها، فإن الرسول ﷺ رأى أنه من واجبه التحرك لمنع استمرار هذا التحالف، فعليه أن يسعى لتفريقه ليسهل عليه القضاء على هؤلاء الأعداء واحداً تلو الآخر، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن هذا الوضع كان عائقاً أمام انتشار الدعوة الإسلامية، وقد كان المسلمون في حاجة إلى فترة هدنة لتفرغوا فيها للدعوة إلى الله تعالى ولتبلغ دعوتهم إلى أماكن لم تبلغها بعد.

المطلب الثاني: مسير الرسول ﷺ للعمرة.

رأى رسول الله ﷺ في المنام أنه دخل مكة هو وأصحابه آمنين محلقين رؤوسهم ومقصرين، وأنه دخل البيت، وأخذ مفتاحه، فعزم على العمرة بعد أن بقي هو وأصحابه ست سنوات لم يعتمروا، فاستنفر العرب ومن حوله من أهل البوادي من الأعراب، ليخرجوا معه وهو يخشى من قريش أن يعرضوا له بحرب أو يصدوه عن البيت، فأبطأ عليه كثير من الأعراب، وابتاع رسول الله ﷺ بدنا ليقدمها هدياً[5]

وخرج الرسول في يوم الاثنين الأول من ذي القعدة من السنة السادسة للهجرة، وخرج معه 1400 من أصحابه وممن لحق به من العرب لا يشكون في العمرة لرؤيا رسول الله ﷺ، ليس معهم سلاح إلا السيوف في القرب، فساروا حتى نزلوا بذي الحليفة فصلى بهم رسول الله ﷺ الظهر، ثم دعا بالبدن -وهي سبعون -فجللت، ثم اشعر منها عدة وهي موجهات إلى القبلة في الشق الأيمن، ثم أمر ناجية بن جندب فاشعر ما بقي وقلدهن نعلا نعلا، واشعر المسلمون بدنهم وقلدوها، وكان معهم مائتا فرس، وبعث ﷺ بسر بن

سفيان عينا له، ولما انبعثت به راحلته مستقبلة القبلة أحرم بالعمرة، ليأمن الناس حربه، وليعلم الناس إنه لم يخرج لحرب وإنما خرج زائرا للبيت، ومعظما له.

غير أنه لما بلغ المشركين خروج رسول الله ﷺ راعهم ذلك فاجتمعوا وتشاوروا فقالوا: أيريد محمد أن يدخلها علينا في جنوده معتمرا فتسمع العرب أنه قد دخل علينا عنوة، وبيننا وبينه من الحرب ما بيننا؟! والله لا كان هذا أبدا ومنا عين تطرف.

وعزموا على صد المسلمين عن العمرة فقدموا خالد بن الوليد في مائتي فارس إلى كراع الغميم، واستنفروا من أطاعهم من الأحابيش، وأجلبت ثقيف معهم وأجمعوا على منع رسول الله ﷺ من دخول مكة ومحاربته.

ولما رجع بشر بن سفيان الذي بعثه الرسول ﷺ عينا له من مكة قال: يا رسول الله!! هذه قريش سمعت بمسيرك، فخرجوا ومعهم العوذ المطافيل[6]، قد لبسوا جلود النمور، وقد نزلوا بذي طوى يعاهدون الله لا تدخلها عليهم أبدا، وهذا خالد بن الوليد في خيلهم قد قدمها إلى كراع الغميم، فقال رسول الله ﷺ: (يا ويح قريش لقد أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب، فإن هم أصابوني كان ذلك الذي أرادوا، وإن أظهرني الله تعالى عليهم دخلوا في الإسلام وافرين، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة، فما تظن قريش؟ فوالله لا أزال أجاهدهم على الذي بعثني الله تعالى به حتى يظهره الله -تعالى - أو تنفرد هذه السالفة)[7].

ثم قام رسول الله ﷺ في المسلمين فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: (أما بعد: يا معشر المسلمين "أشيروا علي" فقال أبو بكر: يا رسول الله إنما جئنا معتمرين ولم نجئ لقتال أحد، ونرى أن نمضي لوجهنا، فمن صدنا عن البيت قاتلناه، ووافقه على ذلك أسيد بن الحضير، فقال رسول الله ﷺ: "فسيروا على اسم الله".

ودنا خالد بن الوليد في خيله حتى نظر إلى رسول الله ﷺ وأصحابه به فصف خيله فيما بين رسول الله ﷺ وبين القبلة -فأمر رسول الله ﷺ عباد بن بشر فتقدم في خيله، فقام بإزائه.

ولما أمسى رسول الله ﷺ غير طريقه حتى لا يصطدم بخالد بن الوليد، لما دنا من الحديبية بركت به راحلته، فقال الناس "حل حل" فأبت أن تنبعث وألحت، فقال المسلمون: خلأت القصواء، فقال رسول الله ﷺ: "ما خلأت القصواء وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة" ثم قال: "والذي نفس محمد بيده لا يسألوني اليوم خطة فيها تعظيم حرمات الله تعالى إلا أعطيتهم أياها" ثم زجرها فقامت، فعدل عنهم حتى نزل بأقصى الحديبية.

وبقي بها ينتظر ما تصنع قريش[8].

المطلب الثالث: التفاوض مع المشركين وكتابة الصلح

بعد أن نزل المسلمون بالحديبية بدأت حركة التفاوض بينهم وبين قريش، فقامت قريش بإرسال أربعة مبعوثين لها على التوالي كما يلي:

1 - مكرز بن حفص بن الأخيف أخو بني عامر بن لؤي: وكان رجلاً فاسقاً، فلما وصل الرسول ﷺ وسأله عن سبب مجيئه أخبره الرسول ﷺ بأنه لم يأت يريد حربا وإنما جاء زائرا للبيت ومعظما لحرمته، فرجع مكرز إلى قريش فأخبرهم بما قال له رسول الله ﷺ[9].

2 - حليس بن علقمة الكناني سيد الأحابيش: وكان رجلاً متديناً، فلما رآه الرسول ﷺ أمر أصحابه بأن يبعثوا الهدي في وجهه حتى يراه ويعلم أن المسلمين إنما جاؤوا معتمرين، فلما رأى حليس الهدى يسيل من عرض الوادي في قلائده قد أكل أوباره من طول الحبس عن محله رجع إلى قريش ولم يصل إلى رسول الله ﷺ إعظاما لما رأى، فقال لهم ذلك.

فقالوا له: اجلس

فإنما أنت أعرابي لا علم لك.

فغضب عند ذلك وقال: يا معشر قريش والله ما على هذا حالفناكم ولا على هذا عاهدناكم، أيصد عن بيت الله من جاءه معظما له؟ والذي نفس الحليس بيده لتخلن بين محمد وبين ما جاء له أو لانفرن بالاحابيش نفرة رجل واحد.

قالوا: مه كف عنا حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به[10].

3 - عروة بن مسعود الثقفي: وكان سيداً مطاعاً في قومه وكثير السراية إلى الملوك، خرج حتى أتى رسول الله ﷺ فجلس بين يديه ثم قال: يا محمد أجمعت أوشاب الناس ثم جئت بهم إلى بيضتك لتفضها بهم؟ إنها قريش قد خرجت معها العوذ المطافيل قد لبسوا جلود النمور، يعاهدون الله لا تدخلها عليهم عنوة أبدا، وأيم الله لكأني بهؤلاء قد انكشفوا عنك غدا.

وأبو بكر الصديق رضى الله عنه خلف رسول الله ﷺ فقال: امصص بظر اللات! أنحن ننكشف عنه؟ قال: من هذا يا محمد؟ قال: هذا ابن أبي قحافة، قال: أما والله لولا يد كانت لك عندي لكافأتك بها، ولكن هذه بهذه.

ثم جعل يتناول لحية رسول الله ﷺ وهو يكلمه، والمغيرة ابن شعبة واقف على رأس رسول الله ﷺ في الحديد، فجعل يقرع يده إذ يتناول لحية رسول الله ﷺ ويقول: اكفف يدك عن وجه رسول الله قبل ألا تصل إليك، قال عروة: ويحك ما أفظك وأغلظك!.

قال: فتبسم رسول الله ﷺ فقال له عروة: من هذا يا محمد؟ قال: هذا ابن أخيك المغيرة بن شعبة.

قال: أي غدر وهل غسلت سوأتك إلا بالأمس؟!

فكلمه رسول الله ﷺ بنحو مما كلم به أصحابه، وأخبره أنه لم يأت يريد حربا، فقام من عند رسول الله ﷺ وقد رأى ما يصنع به أصحابه، لا يتوضأ إلا ابتدروا وضوءه ولا يبصق بصاقا إلا ابتدروه ولا يسقط من شعره شئ إلا أخذوه، فرجع إلى قريش فقال: يا معشر قريش إني قد جئت كسرى في ملكه وقيصر في ملكه والنجاشي في ملكه، وإني والله ما رأيت ملكا في قومه قط مثل محمد في أصحابه ! ولقد رأيت قوما لا يسلمونه لشئ أبدا، فروا رأيكم[11].

4 - سهيل بن عمرو أخا بني عامر بن لؤي: بعثته قريش وقالوا له: ائت محمدا وصالحه، ولا يكن في صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا، فوالله لا تتحدث العرب أنه دخلها عنوة أبدا.

فلما رآه رسول الله ﷺ مقبلا قال: قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل، فلما انتهى سهيل إلى رسول الله ﷺ تكلم فأطال الكلام، وتراجعا ثم جرى بينهما الصلح. حينها دعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال: اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم، فقال سهيل: لا أعرف هذا، ولكن اكتب باسمك اللهم فقال رسول الله ﷺ: اكتب: باسمك اللهم فكتبها؛ ثم قال: اكتب: هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو؛ فقال سهيل لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك؛ فقال رسول الله ﷺ: اكتب: هذا ما صالح عليه محمد بن عبدالله سهيل بن عمرو، اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض، على أنه من أتى محمدا من قريش بغير إذن وليه رده عليهم، ومن جاء قريشا ممن مع محمد لم يردوه عليه، وإن بيننا عيبة مكفوفة وأنه لا إسلال ولا إغلال، وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه وأنك ترجع عنا عامك هذا، فلا تدخل علينا مكة، وأنه إذا كان عام قابل خرجنا عنك فدخلتها بأصحابك، فأقمت بها ثلاثا، معك سلاح الراكب السيوف في القرب لا تدخلها بغيرها"[12]

ثم أشهد رسول الله ﷺ على الصلح رجالا من المسلمين ورجالا من المشركين أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعبد الرحمن بن عوف، وعبد الله بن سهيل بن عمرو، وسعد بن أبي وقاص، ومحمود بن مسلمة، ومكرز بن حفص، وهو يومئذ مشرك وعلي بن أبي طالب[13].

المبحث الثاني: صلح الحديبية: دراسة وتحليل.

المطلب الأول: قراءة فاحصة لبنود صلح الحديبية.

اشتمل الصلح على عدد من البنود هي:

1- أن توضع الحرب على الناس عشر سنين يأمن فيها الناس ويكف بعضهم عن بعض.

2 - من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليهم ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردوه عليه

3 - من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه.

4 - أن يرجع المسلمون عامهم هذا فلا يدخلون مكة، فإذا كان عام قابل خرجوا إلى مكة وخرج منها أهلها فيبقى المسلمون فيها ثلاثة أيام معهم سلاح الراكب السيوف في القرب.

ملاحظات عامة على بنود الصلح:

من خلال النظرة إلى الأحداث التي سبقت صلح الحديبية وتحليل الوضع السياسي والعسكري لكلا الجانبين: المسلمين وقريش، فإن الملاحظ أن حال المسلمين في صعود ثابت بعد خلوص المدينة المنورة للمسلمين واتساع رقعة الدولة الإسلامية ورسوخ مكانة المسلمين كقوة مؤثرة في الجزيرة العربية بعد الانتصارات العديدة التي أحرزها المسلمون على اليهود: بني قريظة وبني قينقاع وبني النضير، وعلى القبائل العربية الأخرى.

أما قريش فإن وضعها كان في أفول مطرد بعد هزيمتهم في غزوتي بدر والأحزاب التي حشدوا لها كل قوتهم وحلفائهم، وبعد تعرض شريان تجارتهم الأساس إلى الشام إلى سيطرة المسلمين، بل أن أعداد قريش المهاجرة إلى الرسول كانت في تزايد مستمر يوماً بعد يوم.

وهذا الوضع هو ما عبر عنه الرسول الكريم ﷺ حين بلغه عزم قريش على حربه فقال:"يا ويح قريش! قد أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب، فإن هم أصابوني كان ذلك الذي أرادوا، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وافرين، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة، فما تظن قريش؟ فوالله لا أزال أجاهد على هذا الذي بعثني الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة"[14].

وعليه، فإن المؤمل والحالة هذه أن يستطيع المسلمون فرض شروط قاسية على قريش، غير أن الأمور اتخذت منحى آخر غير المتوقع.

فمن النظرة الأولى يبدو أن الصلح لا يعطي كلا الفريقين حقوقاً متساوية بل أن شروط الصلح تميل لصالح قريش حيث إنه يطالب المسلمين برد من جاءهم من قريش مسلماً في حين أنه لا يطالب قريشاً بالمثل، كما أنه – في مخالفة صريحة للأعراف العربية – يصد المسلمين الذين جاؤوا معتمرين عن دخول مكة المكرمة وهي على مرمى حجر منهم ويجبرهم على الرجوع إلى المدينة دون أن يعتمروا بعد.

ولهذا فقد بقي أغلب المسلمين – إن لم نقل كلهم- مشدوهين لهذا التنازل العجيب من الرسول غير مصدقين لما يرون[15]، وكان من أشدهم عمر بن الخطاب فقد أتى أبا بكر فقال: يا أبا بكر أليس برسول الله؟ قال: بلى.

قال: أو لسنا بالمسلمين ؟ قال: بلى.

قال: أو ليسوا بالمشركين ؟ قال: بلى.

قال: فعلام نعطي الدنية في ديننا ؟ قال أبو بكر: يا عمر الزم غرزه فإني أشهد أنه رسول الله.

قال عمر: وأنا أشهد أنه رسول الله.

ثم أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله ألست برسول الله ؟ قال: بلى.

قال: أولسنا بالمسلمين ؟ قال: بلى.

قال: أوليسوا بالمشركين ؟ قال: بلى.

قال: فعلام نعطي الدنية في ديننا؟ قال: أنا عبدالله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيعني[16].

وكذلك أنه لما انتهى الرسول ﷺ من كتابة الصلح قال لأصحابه: قوموا فانحروا ثم احلقوا فما قام منهم رجل، حتى قال ذلك ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم أحد دخل على أم سلمة فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت أم سلمة: يا نبي الله أتحب ذلك؟ اخرج ثم لا تكلم أحدا منهم كلمة حتى تنحر بدنك وتدعو حالقك فيحلقك.

فخرج فلم يكلم أحدا منهم حتى فعل ذلك: نحر بدنه ودعا حالقه فحلقه، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق لبعض[17].

ومن هنا ندرك أن الصحابة رضوان الله عليهم كان لديهم ما يشبه الإجماع على أن الصلح لم يكن يلبي طموحاتهم التي كان أولها دخول مكة وأداء العمرة وقد جاؤوا محرمين ملبين يسوقون الهدي، بل أنهم رأوا في الصلح انتقاصاً من كرامتهم وظنوا أنهم كان بإمكانهم الحصول على شروط أفضل من ذلك بكثير.

مصير بنود الصلح:

أشرنا سابقاً إلى أن الصلح اشتمل على بنود أربعة هي:

1. أن توضع الحرب على الناس عشر سنين يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض.
2. من أتى محمدا من قريش بغير إذن وليه رده عليهم ومن جاء قريشا ممن مع محمد لم يردوه عليه
3. من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه.
4. أن يرجع المسلمون عامهم هذا فلا يدخلون مكة، فإذا كان عام قابل خرجوا إلى مكة وخرج منها أهلها فيبقى المسلمون فيها ثلاثة أيام معهم سلاح الراكب السيوف في القرب.

أما البند الأول فقد استمر حتى خرقت قريش الصلح بعد سنتين من كتابته في السنة الثامنة للهجرة.

وأما البند الثالث فقد استمر أيضاً إلى نقض الصلح حيث دخلت قبيلة خزاعة في عقد المسلمين بينما دخلت قبيلة بكر في عقد قريش.

وأما البند الثاني فقد تم تعديله بطلب من قريش وذلك أنه لما قدم رسول الله ﷺ المدينة أتاه أبو بصير عتبة بن أسيد، وكان ممن حبس بمكة فلما قدم رسول الله ﷺ بعثت قريش رجلا من بني عامر بن لؤي، ومعه مولى لهم فقدما على رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ: "يا أبا بصير إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت ولا يصلح لنا في ديننا الغدر وإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا، فانطلق إلى قومك"؛ قال: يا رسول الله، أتردني إلى المشركين يفتنونني في ديني؟! قال: "يا أبا بصير انطلق فإن الله تعالى سيجعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا"

فانطلق معهما، حتى إذا كان بذي الحليفة جلس إلى جدار وجلس معه صاحباه فقال أبو بصير: أصارم سيفك هذا يا أخا بني عامر؟ فقال: نعم، قال: أنظر إليه؟ قال: انظر إن شئت، فاستله أبو بصير، ثم علاه به حتى قتله، وخرج المولى سريعا حتى أتى رسول الله ﷺ وهو جالس في المسجد، فلما رآه رسول الله ﷺ طالعا، قال: "إن هذا الرجل قد رأى فزعا"؛ فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ قال: "ويحك ما لك؟" قال: قتل صاحبكم صاحبي.

فوالله ما برح حتى طلع أبو بصير متوشحا بالسيف حتى وقف على رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله! وفت ذمتك، وأدى الله عنك، أسلمتني بيد القوم وقد امتنعت بديني أن أفتن فيه أو يعبث بي.

فقال رسول الله ﷺ: "ويل أمه محش حرب لو كان معه رجال"

ثم خرج أبو بصير حتى نزل على ساحل البحر بطريق قريش التي كانوا يأخذون عليها إلى الشام، وبلغ المسلمين الذين كانوا احتبسوا بمكة قول رسول الله ﷺ لأبي بصير "ويل أمه محش حرب لو كان معه رجال" فخرجوا إلى أبي بصير، فاجتمع إليه منهم قريب من سبعين رجلا، وكانوا قد ضيقوا على قريش، لا يظفرون بأحد منهم إلا قتلوه ولا تمر بهم عير إلا اقتطعوها، حتى كتبت قريش إلى رسول الله ﷺ تسأله بأرحامها إلا آواهم فلا حاجة لهم بهم . فآواهم رسول الله ﷺ فقدموا عليه المدينة[18].

وأما البند الرابع فقد تحقق في عمرة القضاء التي أداها الرسول والمسلمون في شهر ذي القعدة من السنة السابعة، وهو الشهر الذي صده فيه المشركون عن البيت، فقد أمر رسول الله ﷺ أصحابه أن يتجهزوا للعمرة، ولا يتخلف أحد ممن شهد الحديبية، فلم يتخلف أحد شهدها، إلا رجال استشهدوا بخيبر، ورجال ماتوا، وحمل رسول الله ﷺ السلاح، والبيض، والدروع، والرماح وقاد مائة فرس عليها محمد بن مسلمة، فلما انتهى إلى ذي الحليفة قدم الخيل أمامه، واستعمل على

السلاح بشير بن سعد، فقيل يا رسول الله: حملت السلاح وقد شرطوا أن لا ندخلها عليهم بسلاح الا سلاح المسافر، السيوف في القرب! فقال رسول الله ﷺ: "إنا لا ندخله عليهم الحرم، ولكن يكون قريبا منا، فإن هاجنا هيج من القوم كان السلاح منا قريبا".

فمضى بالخيل محمد بن مسلمة -رضي الله عنه -إلى مر الظهران، فوجد بها نفرا من قريش فسألوه فقال: هذا رسول الله ﷺ يصبح هذا المنزل غدا إن شاء الله -تعالى - ورأوا سلاحا كثيرا مع بشير بن سعد، فخرجوا سراعا، حتى أتوا قريشا، فأخبروهم بالذي رأوه من الخيل والسلاح، ففزعت قريش، وقالوا والله ما أحدثنا حدثا، وإنا على كتابنا، ومدتنا، ففيم يغزونا محمد في أصحابه.

وسار رسول الله ﷺ يلبي والمسلمون معه يلبون، حتى انتهى إلى مر الظهران، وقدم رسول الله ﷺ السلاح إلى بطن يأجج حيث نظر إلى أنصاب الحرم، وبعثت قريش مكرز بن حفص في نفر من قريش حتى لقوه ببطن يأجج، ورسول الله ﷺ في أصحابه، والهدي والسلاح قد تلاحق، فقالوا له: والله يا محمد ما عرفت صغيرا ولا كبيرا -بالغدر، تدخل بالسلاح في الحرم على قومك، وقد شرطت لهم ألا تدخل إلا بسلاح المسافر، السيوف في القرب!! فقال رسول الله ﷺ: "إني لا أدخل عليهم بسلاح".

فقال مكرز: هو الذي تعرف به، البر والوفاء، ثم رجع مكرز سريعا إلى مكة بأصحابه، فقال: إن محمدا لا يدخل بسلاح، وهو على الشرط الذي شرط لكم.

وقدم رسول الله ﷺ مكة صبيحة الرابع من ذي الحجة، ولما جاء مكرز قريشا بخبر رسول الله ﷺ استنكف رجال من أشراف المشركين أن ينظروا إلى رسول الله ﷺ غيظا وحنقا، وأمر رسول الله ﷺ بالهدي أمامه حتى حبس بذي طوى، ودخل رسول الله ﷺ على راحلته القصواء وأصحابه محدقون به، قد توشحوا السيوف يلبون، فلما انتهى رسول الله ﷺ إلى ذي طوى على راحلته والمسلمون حوله، ثم دخل من الثنية التي تطلعه على الحجون.

وقال المشركون قبيل دخول المسلمين لمكة: إنه يقدم غدا قوم قد وهنتهم الحمى، ولقوا فيها شدة، فلما دخل رسول الله ﷺ المسجد اضطبع بردائه وأخرج عضده الايمن، ثم قال: "رحم الله امرأ أراهم من نفسه قوة".

وبقي المسلمون بمكة ثلاثة أيام، فلما انقضى الأجل أتى المشركون عليا -رضي الله عنه -فقالوا: قل لصاحبك: اخرج عنا فقد مضى الاجل، فذكر ذلك علي -رضي الله عنه -لرسول الله ﷺ فأمر رسول الله ﷺ أبا رافع -بالرحيل، وقال: لا يمسين بها أحد من المسلمين "وركب رسول الله ﷺ حتى نزل بسرف"[19]

المطلب الثاني: <u>استغلال الرسول ﷺ للصلح.</u>

لم يضيع الرسول ﷺ لحظة في استغلال فترة الهدنة التي نص عليها صلح الحديبية، فقد كانت الهدنة مع قريش من أهم المطالب التي سعى إليها الرسول ﷺ ليس في صلح الحديبية فحسب إنما منذ هجرته إلى المدينة المنورة بل ربما حتى قبل ذلك، فقد كان الرسول ﷺ يتمنى من قريش – إذ لم تتبعه في دينه القويم – أن تخلي بينه وبين دعوته للناس فلا تحاربه ولا تعاديه وقد عبر عن ذلك حين بلغه عزم قريش على حربه فقال:"يا ويح قريش! قد أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب، فإن هم أصابوني كان ذلك الذي أرادوا، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وافرين، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة، فما تظن قريش؟ فوالله لا أزال أجاهد على هذا الذي بعثني الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة"[20].

وتمني الرسول ﷺ لأن تكون قريش على الحياد إنما كان لأنهم أقاربه وأقارب أصحابه، فلم يكن الرسول ﷺ يرغب في أن يلتقي الأقارب في حرب يقتل بعضهم فيها بعضاً، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فلما لقريش من مكانة ومنزلة في النسيج الديني الذي تدين به الجزيرة العربية، ووقوف قريش على الحياد يفتح الباب على مصراعيه للمسلمين للدعوة إلى الإسلام، ذلك أن قريشاً تمثل المدافع والمحامي عن دين العرب الذين يعترفون لقريش بزعامتها الدينية عليهم، ومتى تخلت قريش عن دفاعها عن دين الجاهلية كان إقناع العرب بالدين الجديد أسهل.

كما أن الرسول ﷺ تعلم الدرس جيداً من تحزب الأحزاب عليه في معركة الخندق، فرأى أنه ليس من الحكمة أن يسمح بتكرار ذلك التحزب مرة أخرى، من هنا فلا بد أن يستغل تحييد قريش الذي وفره صلح الحديبية لضرب حلفائها بالأمس الذين وقفوا معها في معركة الخندق، يقول المباركفوري: "إن صلح الحديبية كان بداية طور جديد في حياة الإسلام والمسلمين، فقد كانت قريش أقوي قوة وأعندها وألدها في عداء الإسلام، وبانسحابها عن ميدان الحرب إلى رحاب الأمن والسلام انكسر أقوي جناح من أجنحة الأحزاب الثلاثة -قريش وغطفان واليهود.- ولما كانت قريش ممثلة للوثنية، وزعيمتهم في ربوع جزيرة العرب انخفضت حدة مشاعر الوثنيين، وانهارت نزعاتها العدائية إلى حد كبير، ولذلك لا نري لغطفان استفزازا كبيرا بعد هذه الهدنة، وجل ما جاء منهم إنما جاء من قبل إغراء اليهود"[21].

ومن هنا فقد بدأ الرسول ﷺ في استغلال صلح الحديبية على محورين:

المحور الأول: وهو المحور الدعوي: وذلك بتوسيع رقعة الدعوة إلى الإسلام ليسمع به من لم يكن قد سمع به بعد.

المحور الثاني: المحور العسكري: وذلك بإخضاع الذين حاربوا المسلمين من قبل أو أولئك الذين

يخططون لمحاربة المسلمين.

وسنتناول كل محور من هذين المحورين بالتفصيل.

أولاً: المحور الدعوي:

ما إن رجع الرسول ﷺ من الحديبية حتى بدأ في دفع الدعوة الإسلامية إلى بعد جديد، فلم يلبث أن أرسل كتباً إلى الملوك والأمراء يدعوهم إلى الإسلام، الأمر الذي لم يكن يخطر على بال أحد قبل ذلك، وهو مؤشر بالغ الدلالة على أن الدعوة الإسلامية بدأت تحقق رسالة بأنها ليست دعوة إقليمية وإنما هي دعوة عالمية يجب تبليغها للناس جميعا.

كما إن في دعوة الرسول لملوك وزعماء الجزيرة العربية إيذاناً ببدء توحيد العرب تحت قيادة واحدة، وهو أمر لم يحدث من قبل (وتعد هذه الخطوة نقطة تحول هامة في تاريخ العرب والإسلام ليس لأن الرسول سوف يوحد عرب الجزيرة العربية تحت راية الإسلام فحسب، ولكن لأن هؤلاء العرب بعد أن اعتنقوا الإسلام وتمثلوا رسالة السماء أنيط بهم حمل الدعوة الإسلامية إلى البشرية كافة)[22].

ولما أراد ﷺ أن يكتب إلى هؤلاء الملوك قيل له : إنهم لا يقرءون كتابا إلا وعليه خاتم، فاتخذ النبي ﷺ خاتما من فضة، نقشه: (محمد رسول الله)، وكان هذا النقش ثلاثة أسطر: محمد سطر، ورسول سطر، والله سطر[23]، واختار من أصحابه رسلا لهم معرفة وخبرة، وأرسلهم إلى الملوك[24]

والملوك والزعماء الذين أرسلت إليهم الدعوة إلى الإسلام هم:

1. كسرى ملك الفرس: الذي أرسل إليه الرسول ﷺكتاباً مع عبدالله بن حذافة السهمي.[25]

فلما قرئ الكتاب على كسرى مزقه قائلاً: "عبد حقير من رعيتي يكتب اسمه قبلي" ولما بلغ الخبر رسول الله قال: "مزق الله ملكه"

2. قيصر ملك الروم: وحمل كتاب الرسول ﷺ إليه دحية بن خليفة الكلبي[26].

وكان موقف قيصر من كتاب رسول الله ﷺ أفضل من موقف كسرى فقد طلب أحداً من أقرب الناس إلى الرسول ﷺ فصادف أن كان أبو سفيان في تجارة إلى الشام مع جماعة من قريش فدعا بهم قيصر وأخذ يسألهم عن الرسول ﷺ حتى قال في أخر المقابلة لأبي سفيان: "إن كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدمي هاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج ولم أظن أنه منكم، فلو أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت قدميه"، وقد علق أبو سفيان على هذا الأمر بقوله: "لقد أمر أمر ابن أبي كبشة إنه ليخافه ملك بني الأصفر"[27]

وقد حاول قيصر أن يقنع قومه بدخول الإسلام ولما رفضوا ذلك رفضاً قاطعاً سايرهم وفضل ملكه على أن يدخل في الإسلام.

3. النجاشي ملك الحبشة: واسمه أصحمة بن الأبجر، وحمل كتاب الرسول ﷺ إليه عمرو بن أمية الضمري.[28].

ولما بلغ عمرو بن أمية كتاب الرسول ﷺ إلى النجاشي أخذه النجاشي ووضعه على عينه ونزل عن سريره على الأرض وأسلم، ثم كتب إلى الرسول ﷺ كتاباً يخبره فيه بإسلامه[29].

4. المقوقس ملك مصر: واسمه جريج بن متى، وحمل كتاب الرسول ﷺ إليه حاطب بن أبي بلتعة[30].

ولما بلغ الكتاب المقوقس سأل حاطباً عن عدد من الأمور، وأخيراً فإنه لم يسلم ولكنه عظم كتاب رسول الله ﷺ إليه وكتب كتاباً إلى الرسول ﷺ[31]

5. المنذر بن ساوي حاكم البحرين: وحمل كتاب الرسول ﷺ إليه العلاء بن الحضرمي، وقد أسلم المنذر وأسلم الكثير من رعيته.

6. هوذة بن علي الحنفي صاحب اليمامة: وحمل كتاب الرسول ﷺ إليه سليط بن عمرو العامري، فلما بلغ سليط كتاب الرسول ﷺ إلى هوذة لم يسلم وإنما كتب إلى الرسول ﷺ بكتاب فيه: "ما أحسن ما تدعو إليه وأجمله، والعرب تهاب مكاني، فاجعل لي بعض الأمر أتبعك"، وأجاز سليطا بجائزة، وكساه أثوابا من نسج هجر.

فقدم بذلك كله على النبي ﷺ فأخبره، وقرأ النبي ﷺ كتابه فقال: "لو سألني قطعة من الأرض ما فعلت، باد، وباد ما في يديه"

وقد مات هوذه بعيد فتح مكة!! [32]

7. الحارث بن أبي شمر الغساني صاحب دمشق: وحمل كتاب الرسول ﷺ إليه شجاع بن وهب الأسدي، ونص الكتاب: "بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى الحارث بن أبي شمر، سلام على من اتبع الهدى، وآمن بالله وصدق، وإني أدعوك إلى أن تؤمن بالله وحده لا شريك له، يبقى لك ملكك"

فرد الحارث رداً قبيحاً وقال: من ينزع ملكي مني؟! ولم يسلم.

8. عبد وجيفر ابنا الجلندى ملكا عمان: ويبدو أن مكاتبتهما تأخرت بعض الشيء ذلك أن الذي حمل كتاب الرسول ﷺ إليهما هو عمرو بن العاص الذي أسلم بعد صلح الحديبية بفترة[33]، وبعد محاورة طويلة بين عمرو وملكي عمان أسلما وأسلم أهل عمان، وبقي عمرو في عمان يجمع الصدقة ويوزعها بين أهلها وكان عبد وأخوه جيفر عوناً له على من خالفه[34].

نتائج حركة الدعوة الإسلامية في فترة الصلح:

كما رأينا فإن موقف الملوك والزعماء الذين خرجت إليهم كتب الرسول ﷺ لم يكن واحداً، فبعضهم

بادر بالدخول في الإسلام كالنجاشي والمنذر بن ساوي وملكي عمان، وبعضهم رفض الدعوة رفضاً قاطعاً، وبعضهم كان بين بين، لكن هذه الخطوة من الرسول ﷺ حققت – فيما حققت من أهداف- هدفين اثنين:

الأول: وصول دعوة الإسلام إلى أماكن كان الوصول إليها قبيل سنوات ضرباً من الآمال، وهذا إضافة إلى أنه فتح الباب للدعوة الإسلامية على شتى البقاع، فإنه أكد ما وصل إليه المسلمون من عزة وشأن ومكانة في الجزيرة العربية بل في المنطقة بأسرها.

الثاني: وصول الإسلام نفسه إلى أقصى الجزيرة العربية بإسلام أهل عمان وأهل البحرين وقبائل عديدة من اليمن ومن شمال الجزيرة العربية، بل إن الإسلام خرج بقوة لأول مرة خارج الجزيرة العربية بإسلام النجاشي ومن معه، ورغم بعد هذه المناطق عن المدينة المنورة إلا أن أهلها اختاروا الدخول في الإسلام طواعية، وهو ما يؤكد حقيقة أن الإسلام لم ينتشر بالسيف والقوة وإنما باقتناع الناس بعظمة هذا الدين وصدق الرسول ﷺ.

ودعوة الرسول ﷺ لم تقتصر على الملوك والزعماء بل إن الرسول ﷺ كثف من دعوته للقبائل العربية فدخل في الإسلام عدد كبير منهم، يقول الزهري: "فما فتح في الإسلام فتح قبله كان أعظم منه إنما كان القتال حيث التقى الناس فلما كانت الهدنة ووضعت الحرب وآمن الناس بعضهم بعضا، والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة فلم يكلم أحد بالإسلام يعقل شيئا إلا دخل فيه ولقد دخل في تينك السنتين مثل من كان في الإسلام قبل ذلك أو أكثر"، قال ابن هشام : "والدليل على قول الزهري أن رسول الله ﷺ خرج إلى الحديبية في ألف وأربع مئة في قول جابر بن عبد الله، ثم خرج عام فتح مكة بعد ذلك بسنتين في عشرة آلاف"[35].

بل أن العديد من زعماء قريش نفسها قد دخلوا في الإسلام في فترة الصلح كخالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعثمان بن طلحة[36].

ثانياً: الجانب العسكري:

كما كانت الهدنة مع قريش ذات فائدة على سير الدعوة الإسلامية، فقد كان لها الجانب الإيجابي في ترسيخ قواعد الدولة الإسلامية، فبالهدنة مع قريش أمكن للمسلمين التفرغ لأعداء الدولة الإسلامية من الأعراب ويهود خيبر.

لقد جعل التحالف الذي حدث في معركة الأحزاب الرسول ﷺ يدرك الأخطار التي يمكن أن تتعرض لها الدولة الوليدة، ولذا فليس من الممكن أن يسمح الرسول ﷺ بتكرار تلك الحادثة مرة أخرى، ومن أجل ذلك قام الرسول ﷺ بخطوات نلخصها في أمرين:

1. غزوة خيبر: كان يهود بني النضير الذين أجلاهم الرسول ﷺ عن المدينة وسكنوا خيبر هم أشر أجنحة الأحزاب الثلاثة لأنهم هم الذين بدؤوا بتأليب القبائل على المسلمين وتعهدوا بدفع تكاليف تلك المعركة، ولذلك كان القضاء عليهم أولوية قصوى للرسول ﷺ.

يقول المباركفوري: "أما اليهود فكانوا قد جعلوا خيبر بعد جلائهم عن يثرب وكرا للدس والتآمر، وكانت شياطينهم تبيض هناك وتفرخ، وتؤجج نار الفتنة، وتغري الأعراب الضاربة حول المدينة، وتبيت للقضاء على النبي ﷺ والمسلمين، أو لإلحاق الخسائر الفادحة بهم، ولذلك كان أول إقدام حاسم من النبي ﷺ بعد هذا الصلح هو شن الحرب الفاصلة على هذا الوكر"[37].

ولذا فما إن رجع الرسول ﷺ من الحديبية ومكث بالمدينة عشرين ليلة أو قريبا منها، حتى خرج غاديا إلى خيبر واستنفر من حوله ممن شهد الحديبية يغزون معه، وخرج رسول الله ﷺ حتى أتى خيبر من قبل الشام حتى يحول بين اليهود وحلفائهم من غطفان، وانتهى إليها ليلا فلما أصبح خرج أهل القرية إلى مزارعهم بمكاتلهم ومساحيهم، فلما رأوا رسول الله ﷺ صاحوا: محمد والخميس، وفروا هاربين إلى حصونهم، فقال رسول الله ﷺ ورفع يديه: " الله اكبر، خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين"

ثم أخذ المسلمون يفتحون حصون خيبر حصنا بعد حصن حتى حصروهم في آخر حصونهم أربعة عشر يوما، فلما يئسوا من النصر سألوا رسول الله ﷺ الصلح، فصالحهم على حقن دماء من في حصونهم من المقاتلة، وترك الذرية لهم، ويخرجون من خيبر وأرضها بذراريهم، ويخلون بين رسول الله ﷺ وبين ما كان لهم من مال وأرض، وعلى الصفراء والبيضاء والكراع والحلقة، وعلى البز إلا ثوبا على ظهر إنسان، فقال رسول الله ﷺ:" وبرئت منكم ذمة الله وذمة رسوله إن كتمتموني شيئاً"

ثم أن اليهود سألوا رسول الله ﷺ أن يقرهم فيها على نصف ما خرج منها من التمر، وقالوا: دعنا يا محمد نكون في هذه الارض، نصلحها، ونقوم عليها، فأعطاهم رسول الله ﷺ خيبر على أن لهم الشطر من كل زرع ونخل على أن للمسلمين أن يخرجوهم متى ما أرادوا[38].

2. السرايا: بعد أن قضى الرسول على الجناح الثاني من أجنحة الأحزاب وهم اليهود في خيبر، كان لا بد من استغلال الصلح لتأديب الجناح الثالث منهم وهو القبائل العربية التي تحالفت مع قريش لغزو المدينة في معركة الخندق وهي: غطفان وبنو سليم وبنو أسد وفزارة وأشجع وبنو مرة[39]، ولأجل هذا الهدف بعث الرسول عدداً من السرايا إلى تلك القبائل.

فأرسل أبا بكر الصديق بسرية إلى بني فزارة وهزمهم، وأرسل بشير بن سعد بسرية إلى بني مرة

بفدك ولكنهم استطاع هزيمته فأرسل الرسول إليهم سرية أخرى فيها كبار الصحابة بقيادة غالب بن عبدالله فهزمهم، ثم أرسل الرسول بشير بن سعد مرة أخرى إلى غطفان، وأرسل سرية أخرى بقيادة محلم بن جثامة إلى أشجع[40].

وبهذا استطاع الرسول الاستفراد بتلك القبائل بعد تحييد قريش وهزيمة اليهود في خيبر فأخذ يقاتل تلك القبائل قبيلة بعد أخرى، وبذلك استطاع أن يحد من خطرهم على الدولة الإسلامية.

وبهذا يتضح لنا بجلاء بعد النظر عند رسول الله ﷺ، فقد تبين كيف استطاع الرسول ﷺ استغلال الصلح لتقوية مكانة المسلمين دعوياً وعسكرياً، فيما بقيت قريش تراقب الوضع مراقبة العاجز الذي كبلت يداه فلا يستطيع عمل شيء، فقد رأى زعماء قريش قوة المسلمين تتعاظم ونفوذهم هم يتضاءل شيئاً بعد شيء وهم لا يستطيعون حراكاً، الأمر الذي دفعهم إلى القيام بالخطوة الحمقاء التي قاموا بها حين ناصروا حليفتهم بكراً على خزاعة التي دخلت في حلف المسلمين في خرق واضح لبنود الصلح، وبالتالي فقد هيئوا لنهايتهم بأنفسهم، وحفروا قبر زعامتهم بأيديهم.

المطلب الثالث: <u>فوائد صلح الحديبية للمسلمين</u>

مما مر يتبين لنا بما لا يدع مجالاً للشك أن صلح الحديبية كان فتحاً عظيماً للمسلمين، وتسميته بـ (الفتح العظيم) هي التسمية التي وصف الله تعالى بها هذا الصلح، فما إن رجع الرسول ﷺ من الحديبية حتى نزل عليه قوله تعالى: "إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا، لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا، وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا" الفتح:1-3، فهذه السورة نزلت في صلح الحديبية وليس كما يتصور الكثيرون أنها نزلت بعد فتح مكة[41]، فحين بدا للكثيرين أن صلح الحديبية أبعد المسلمين خطوات عن مكة المكرمة، كان تدبير الله تعالى قد جعله خطوة كبيرة نحو فتح مكة.

روى الحاكم في المستدرك من طريق مجمع بن جارية الأنصاري قال: "شهدنا الحديبية مع رسول الله ﷺ فلما انصرفنا عنها إذ الناس يهزون بالأباعر، فقال بعض الناس لبعض: ما للناس؟ قالوا: أوحي إلى رسول الله ﷺ فخرجنا مع الناس نوجف فوجدنا النبي ﷺ واقفا على راحلته عند كراع الغميم، فلما اجتمع عليه الناس قرأ عليهم "إنا فتحنا لك فتحا مبينا" فقال رجل: يا رسول الله أفتح هو؟ قال : نعم، والذي نفس محمد بيده إنه لفتح"[42]

يقول د.البوطي: "إن أمر هذا الصلح كان مظهراً لتدبير إلهي محض تجلى فيه عمل النبوة وأثرها كما لم يتجل في أي عمل أو تدبير آخر، فقد كان نجاحه سراً مرتبطاً بمكنون الغيب المطوي في علم الله وحده، ولذلك انتزع -كما قد رأيت- دهشة المسلمين أكثر مما اعتمد على فكرهم وتدبيرهم، ومن هنا فإنا نعتبر أمر هذا الصلح بمقدماته ومضمونه ونتائجه من الأسس الهامة في تقويم العقيدة الإسلامية وتثبيتها..... إن صلح الحديبية كان مقدمة بين يدى فتح مكة فقد كانت هذه الهدنة - كما يقول ابن القيم - باباً له ومفتاحاً وتلك هي عادة الله سبحانه وتعالى يوطيء بين يدي الأمور التى تعلقت إرادته إنجازها مقدمات تؤذن بها وتدل عليها.

ولئن لم يكن المسلمون قد تنبهوا لهذا فى حينه فذلك لأن المستقبل غائب عنهم، فأنى لهم أن يفهموا علاقة الواقع الذي رأوه بالغيب الذي م يتصوروه بعد؟

ولكن ما إن مضت فترة من الزمن حتى أخذ المسلمون يستشفون أهمية هذه الهدنة وعظيم ما قد انطوت عليه من خير فالناس قد أمن بعضهم بعضاً واختلط المسلمون بالكفار ونادوهم بالدعوة وأسمعوهم القرآن وناظروهم على الإسلام جهرة آمنين وظهر من كان متخفياً بالإسلام ..... ولذلك أطلق القرآن اسم الفتح على هذا الصلح، وذلك في قوله تعالى : "لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا""[43].

كما يقول المباركفوري مجلياً الفوائد العظيمة لهذا الصلح: "هذا هو صلح الحديبية، ومن سبر أغوار بنوده مع خلفياته لا يشك أنه فتح عظيم للمسلمين، فقريش لم تكن تعترف بالمسلمين أي اعتراف، بل كانت تهدف استئصال شأفتهم، وتنتظر أن تشهد يوما ما نهايتهم، وكانت تحاول بأقصى قوتها الحيلولة بين الدعوة الإسلامية وبين الناس، بصفتها ممثلة الزعامة الدينية والصدارة الدنيوية في جزيرة العرب، ومجرد الجنوح إلى الصلح اعتراف بقوة المسلمين، وأن قريشا لا تقدر على مقاومتهم، ثم البند الثالث يدل بفحواه على أن قريشا نسيت صدارتها الدنيوية وزعامتها الدينية، وأنها لا تهمها الآن إلا نفسها، أما سائر الناس وبقية جزيرة العرب فلو دخلت في الإسلام بأجمعها، فلا يهم ذلك قريشا، ولا تتدخل في ذلك بأي نوع من أنواع التدخل.

أليس هذا فشلا ذريعاً بالنسبة إلى قريش؟ وفتحا مبينا بالنسبة إلى المسلمين؟ إن الحروب الدامية التي جرت بين المسلمين وبين أعدائهم لم تكن أهدافها - بالنسبة إلى المسلمين - مصادرة الأموال وإبادة الأرواح، وإفناء الناس، أو إكراه العدو على اعتناق الإسلام، وإنما كان الهدف الوحيد الذي يهدفه المسلمون من هذه الحروب هو الحرية الكاملة للناس في العقيدة والدين {فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر} [الكهف:

29]. لا يحول بينهم وبين ما يريدون أي قوة من القوات، وقد حصل هذا الهدف بجميع أجزائه ولوازمه، وبطريق ربما لا يحصل بمثله في الحروب مع الفتح المبين، وقد كسب المسلمون لأجل هذه الحرية نجاحا كبيرا في الدعوة، فبينما كان عدد المسلمين لا يزيد على ثلاثة آلاف قبل الهدنة صار عدد الجيش الإسلامي في سنتين عند فتح مكة عشرة آلاف.

أما البند الثاني فهو جزء ثان لهذا الفتح المبين، فالمسلمون لم يكونوا بادئين بالحروب، وإنما بدأتها قريش، يقول الله تعالى: {وهم بدؤوكم أول مرة} [التوبة: 13]، أما المسلمون فلم يكن المقصود من دورياتهم العسكرية إلا أن تفيق قريش عن غطرستها وصدها عن سبيل الله، وتعمل معهم بالمساواة، كل من الفريقين يعمل على شاكلته، فالعقد بوضع الحرب عشر سنين حد لهذه الغطرسة والصد، ودليل على فشل من بدأ بالحرب وعلى ضعفه وانهياره.

أما البند الأول فهو حد لصد قريش عن المسجد الحرام، فهو أيضا فشل لقريش، وليس فيه ما يشفي قريشا سوي أنها نجحت في الصد لذلك العام الواحد فقط.

أعطت قريش هذه الخلال الثلاث للمسلمين، وحصلت بإزائها خلة واحدة فقط، وهي ما في البند الرابع، ولكن تلك الخلة تافهة جدا، ليس فيها شيء يضر بالمسلمين، فمعلوم أن المسلم ما دام مسلما لا يفر عن الله ورسوله، وعن مدينة الإسلام، ولا يفر إلا إذا ارتد عن الإسلام ظاهرا أو باطنا، فإذا ارتد فلا حاجة إليه للمسلمين، وانفصاله من المجتمع الإسلامي خير من بقائه فيه، وهذا الذي أشار إليه رسول الله ﷺ بقوله : "إنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله"، وأما من أسلم من أهل مكة فهو وإن لم يبق للجوئه إلى المدينة سبيل لكن أرض الله واسعة، ألم تكن الحبشة واسعة للمسلمين حينما لم يكن يعرف أهل المدينة عن الإسلام شيئا؟ وهذا الذي أشار إليه النبي بقوله: "ومن جاءنا منهم سيجعل الله له فرجا ومخرجا".

والأخذ بمثل هذا الاحتفاظ، وإن كان مظهر الاعتزاز لقريش، لكنه في الحقيقة ينبئ عن شدة انزعاج قريش وهلعهم وخورهم، وعن شدة خوفهم على كيانهم الوثني، وكأنهم كانوا قد أحسوا أن كيانهم اليوم على شفا جرف هار لا بد له من الأخذ بمثل هذا الاحتفاظ . وما سمح به النبي ﷺ من أنه لا يسترد من فر إلى قريش من المسلمين، فليس هذا إلا دليلا على أنه يعتمد على تثبيت كيانه وقوته كمال الاعتماد، ولا يخاف عليه من مثل هذا الشرط"[44]

وإذن فصلح الحديبية كان خيراً محضاً للمسلمين، عاد عليهم بفوائد جسيمة لم يكونوا يؤملوه في حينه، ولكن بدأت تظهر لهم حيناً بعد حين.

المطلب الرابع: <u>نقض قريش للصلح وفتح مكة.</u>

كانت خيارات قريش محدودة، فهم إما أن يبقوا مراقبين للوضع ينظرون سلطان المسلمين يزداد نفوذاً وقوة يوماً بعد يوم، ويكسب أتباعاً جدداً كل يوم، في الوقت الذي يتضاءل فيه نفوذهم هم، وإما أن ينقادوا لصوت العقل الذي يدعوهم إلى الدخول في الإسلام ليس لأن معركتهم معه خاسرة لا محالة فحسب وإنما أيضاً لأنهم يشاهدون بأم أعينهم كيف أن الله تعالى متم نوره برغم قتالهم له وكيف أن كل ما كان يعد الرسول ﷺ به أتباعه يتحقق رأي العين.

ومن غير المنصف أن نقول أن صلح الحديبية لم يكن في صالح قريش البتة، فالحق الجلي أن صلحهم مع المسلمين خير لهم من القتال الذي لم يفدهم بشيء، بل إن الصلح أعطاهم فرصة مواتية للراحة ومعاودة تجارتهم إلى الشام التي أضرت بها حروبهم مع المسلمين خاصة وأن المسلمين كانوا مسيطرين تماماً على طريق تجارتهم إلى الشام، ولذا فإن قريشاً بادرت أيضاً باستغلال هذه الفرصة المتاحة لهم فقاموا بتنشيط تجارتهم مع الشام، كما فعل أبو سفيان حين خرج بقافلة إلى الشام بعد صلح الحديبية مباشرة[45].

كان بإمكان قريش أن يستمتعوا بتلك المزايا التي وفرها لهم صلح الحديبية، ولكن زعامة قريش كانت قد تأثرت كثيراً بنتائج المعارك التي خاضوها مع المسلمين وخاصة معركة بدر التي قتل فيها الكثير من كبار زعمائهم، فبعد مقتل أبي جهل والوليد بن المغيرة وعتبة بن ربيعة وأمية بن خلف وغيرهم من كبار زعماء قريش في معركة بدر انتقلت زعامة قريش إلى الجيل الثاني الذي كان أقل كياسة وخبرة وحنكة كصفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل وخالد بن الوليد (أسلم قبل فتح مكة)، نعم، كان أبو سفيان (الذي كان يناهز السبعين عاماً)[46] هو أكبر زعماء قريش سناً، ولكن يبدو أن سيطرته على قريش كانت ضعيفة، فلم يكن قادراً على السيطرة على الاندفاع الذي كان يتمتع به الجيل الجديد.

لم ينظر هؤلاء إلى الفوائد التي جنوها ويجنونها من صلح الحديبية بل كانوا خاضعين لفكرة بقاء زعامتهم للعرب، تلك الزعامة التي بدا أنها في اضمحلال مستمر لصالح المسلمين، لذلك رأوا أنهم لا بد من أن يفعلوا شيئاً، ويجب ألا يكبلهم صلح الحديبية عن التحرك، فقاموا بحركة حمقاء سرعان ما تبين لهم أنهم لم يقدروا عواقبها حق التقدير.

<u>نقض قريش للصلح:</u>

في شعبان من السنة الثامنة للهجرة جاء إلى قريش بعض الرجال من قبيلة بكر التي كانت داخلة في عهدهم يطلبون منهم عونهم على عدوهم خزاعة الذين كانوا في عهد الرسول ﷺ، فعلم زعماء قريش أن استجابتهم لهذا الطلب يعد خرقاً واضحاً للصلح، ولذلك

ترددوا بعض الشيء ولكنهم في الأخير قبلوا أن يعينوهم بالسلاح، بل أن بعض القرشيين كصفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل وحويطب بن عبد العزى وشيبة بن عثمان ومكرز بن حفص قرروا مساعدتهم بأنفسهم على أن يغيروا على خزاعة ليلاً متلثمين حتى لا يعرفهم رجال خزاعة، ويقال أن أبا سفيان لم يكن يعلم بهذا الأمر، وقيل بل علم ولم يوافق عليه لما يرى من عواقبه الوخيمة.

فقامت بكر مع من ساعدهم من قريش بالإغارة على قبيلة خزاعة ليلاً فقاتلوهم حتى ألجوهم إلى الحرم، بل أنهم قاتلوهم في الحرم، حتى قتلوا منهم ثلاثة وعشرين رجلاً[47].

ثم ندمت قريش على ما صنعوا، وعرفوا أن هذا الذي صنعوه نقض للذمة والعهد الذي بينهم وبين رسول الله ﷺ، فجاء الحارث بن هشام، وعبد الله بن أبي ربيعة إلى صفوان بن أمية وسهيل بن عمرو وعكرمة بن أبي جهل فلاموهم بما صنعوا من عونهم بني بكر على خزاعة وقالوا لهم: إن بينكم وبين محمد مدة وهذا نقض لها.

وخرج عمرو بن سالم الخزاعي في أربعين راكبا من خزاعة يستنصرون رسول الله ﷺ ويخبرونه بالذي أصابهم، وما ظاهرت عليهم قريش ومعاونتهم لهم بالرجال، والسلاح والكراع، وحضور صفوان بن أمية وعكرمة، ومن حضر من قريش، وأخبروه بالخبر ورسول الله ﷺ جالس في المسجد بين أظهر الناس، فلما فرغوا من قصتهم، قام عمرو بن سالم فقال أبياتاً، منها:

يا رب إني ناشد محمدا
حلف أبينا وأبيه الا تلدا
إن قريشا أخلفوك الموعدا
ونقضوا ميثاقك المؤكدا
هم بيتونا بالوتير هجدا
وقتلونا ركعا وسجدا
فانصر رسول الله نصرا أيدا
وادع عباد الله ياتوا مددا
فيهم رسول الله قد تجردا
في فيلق كالبحر يجري مزبدا[48]

فقال رسول الله ﷺ: "نصرت يا عمرو بن سالم، لا نصرت إن لم أنصر بني كعب مما أنصر منه نفسي"

ثم إن رسول الله ﷺ قال: "لكأنكم بأبي سفيان قد جاء يقول: جدد العهد وزد في الهدنة، وهو راجع بسخطه"[49]

محاولة أبي سفيان للإبقاء على الصلح:

وقد حدث بما أخبر به الرسول ﷺ، وذلك أن أبا سفيان لما رأى ما رأى من الشر قال: هذا والله أمر لم أشهده، ولم أغب عنه، لا يحمل هذا إلا علي، ولا والله ما شوورت فيه، ولا هويته حين بلغني، والله ليغزونا محمد إن صدقني ظني، وهو صادقي، وما بد من أن آتي محمدا فاكلمه أن يزيد في الهدنة ويجدد العهد.

فقالت قريش: قد والله أصبت.

وأقبل أبو سفيان حتى دخل المدينة، فدخل على ابنته أم حبيبة زوج النبي ﷺ فأراد أن يجلس على فراش رسول الله ﷺ فطوته دونه.

فقال: يا بنية! أرغبت بهذا الفراش عني أو بي عنه؟ قالت: بل هو فراش رسول الله ﷺ وأنت امرؤ مشرك نجس، فلم أحب أن تجلس على فراش رسول الله ﷺ قال: يا بنية لقد أصابك بعدي شر، فقالت: بل هداني الله للإسلام، وأنت يا أبت سيد قريش وكبيرها، كيف يسقط عنك الدخول في الإسلام؟ وأنت تعبد حجرا لا يسمع ولا يبصر؟ فقام من عندها فأتى رسول الله ﷺ وهو في المسجد، فقال: يا محمد! إني كنت غائباً في صلح الحديبية فاشدد العهد، وزدنا في المدة، فقال رسول الله ﷺ: "فلذلك جئت يا أبا سفيان؟" قال: نعم، فقال رسول الله ﷺ: "هل كان من قبلكم من حدث؟" قال: معاذ الله! نحن على عهدنا وصلحنا يوم الحديبية لا نغير ولا نبدل، فقال رسول الله ﷺ: "فنحن على مدتنا وصلحنا يوم الحديبية لا نغير ولا نبدل" فأعاد أبو سفيان على رسول الله ﷺ القول، فلم يرد عليه شيئاً.

فذهب إلى أبي بكر الصديق ثم عمر بن الخطاب ثم عثمان بن عفان ثم علي بن أبي طالب ثم سعد بن عبادة يطلب من كل واحد منهم أن يشفع له عند رسول الله ﷺ أو أن يجير بين الناس على عادة العرب ولكنه لم يجد منهم ما يحب، وكانوا يجيبونه: جواري من جوار رسول الله ﷺ، إلا أن علي بن أبي طالب قال له: والله ما أعلم شيئا يغنى عنك شيئا، ولكنك سيد بني كنانة، قال: صدقت، وأنا كذلك، قال: فقم فأجر بين الناس ثم الحق بأرضك، قال: أوترى ذلك مغنيا عني شيئا؟ قال: لا والله، ولكن لا أجد لك غير ذلك، فقام أبو سفيان في المسجد، فقال: أيها الناس إني قد أجرت بين الناس ولا والله ما أظن أن يخفرني أحد، ثم دخل على رسول الله ﷺ فقال: يا محمد إني قد أجرت بين الناس فقال رسول الله ﷺ: "أنت تقول ذلك يا أبا حنظلة!؟"، ثم ركب بعيره وانطلق.

فلما جاء مكة قالت له قريش: ما وراءك؟ هل جئت بكتاب من محمد أو زيادة في مدة ما نأمن به أن يغزونا محمد؟ فقال: لقد كلمته، فوالله ما رد على شيئا، وكلمت أبا بكر فلم أجد فيه خيرا، ثم جئت ابن الخطاب فوجدته أدنى العدو، وقد كلمت علية أصحابه، فما قدرت على شيء منهم إلا أنهم يرمونني بكلمة واحدة، وما رأيت قوما أطوع لملك عليهم منهم له، إلا أن عليا لما ضاقت بي الأمور قال: أنت سيد بني كنانة، فأجر بين الناس، فناديت بالجوار، فقال محمد: "أنت تقول ذلك يا أبا حنظلة!؟" لم يزدني قالوا: رضيت بغير رضى، وجئت

بما لا يغني عنا ولا عنك شيئا، ولعمر الله ما جوارك بجائز، وإن إخفارك عليهم لهين، ما زاد علي من أن لعب بك تلعبا.

قال: والله ما وجدت غير ذلك[50].

عزم الرسول على المسير إلى مكة:

كان رسول الله ﷺ حريصاً حرصاً شديداً على عدم معرفة قريش بمسيره إليهم حتى لا يستعدوا له وبذلك لن يقع قتال كبير بين الفريقين، فعدم استعداد قريش ومباغتة الرسول ﷺ لهم بجيشه الكبير كفيلان باستسلامهم السريع بدون قتال، وقد دعا الله تعالى ليوفقه لذلك قائلاً: "اللهم خذ على أسماعهم وأبصارهم فلا يرونا إلا بغتة، ولا يسمعون بنا إلا فجاة"

ولأجل تحقيق هذه الغاية قام الرسول ﷺ بعدد من الأمور، فبعث أبا قتادة بن ربعي إلى بطن إضم، ليظن الظان أنه متوجه إلى تلك الناحية، كما أمر جماعة يكونوا على مخارج المدينة، وكان عمر بن الخطاب يطوف عليهم فيقول: لا تدعوا أحدا يمر بكم تتكرونه إلا رددتموه.

ثم أرسل إلى أهل البادية، ومن حولهم من المسلمين، يقول لهم: "من كان يؤمن بالله وباليوم الآخر فليحضر رمضان بالمدينة" وبعث رسلا في كل ناحية حتى قدموا على رسول الله ﷺ.

غير أن الصحابي الجليل حاطب بن أبي بلتعة كتب كتابا إلى قريش يخبرهم بالذي أجمع عليه رسول الله ﷺ من الأمر في المسير إليهم، ثم أعطاه امرأة وجعل لها جعلا على أن تبلغه أهل مكة، وقال لها: أخفيه ما استطعت، ولا تمري على الطريق، فان عليه حرسا، فجعلته في رأسها، ثم فتلت عليه قرونها، ثم خرجت به دون أن يشعر بها أحد.

وأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بما صنع حاطب، فبعث علي بن أبي طالب، والزبير بن العوام وقال لهم: "انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ، فإن بها ظعينة معها كتاب، فخرجا حتى أدركاها فالتمسا الكتاب في رحلها، فلم يجدا شيئا، فقال لها علي بن أبي طالب - رضي الله عنه: إني أحلف بالله ما كذب رسول الله ﷺ وما كذبنا، ولتخرجن لنا هذا الكتاب أو لنكشفنك، فلما رأت الجد، قالت: أعرضا، فحلت قرون رأسها، فاستخرجت الكتاب منها، فدفعته إليه فأتى به رسول الله ﷺ، فدعا حاطبا، فقال: يا حاطب، ما حملك على هذا؟ قال: يا رسول الله! لا تعجل علي، إني كنت امرء ملصقا في قريش، ولم أكن من أنفسهم، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابة يحمون أموالهم بها وأهليهم بمكة، ولم يكن لي قرابة، فأحببت إذ فاتني ذلك من بنيهم أن أتخذ فيهم يدا أحمي بها قرابتي، وما فعلت ذلك كفرا بعد إسلام، فقال رسول الله ﷺ: "إنه قد صدقكم".

فقال عمر لحاطب: قاتلك الله!! ترى رسول الله يأخذ بالأنقاب وتكتب إلى قريش تحذرهم؟ دعني يا رسول الله أضرب عنقه، فان الرجل قد نافق، فقال رسول الله ﷺ: "ما يدريك يا عمر أن الله عز وجل اطلع إلى أصحاب بدر يوم بدر فقال: "اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم"[51].

خروج الرسول ﷺ من المدينة:

خرج رسول الله ﷺ من المدينة في العاشر من رمضان صائماً، روى مسلم عن أبي سعيد الخدرى - رضي الله عنه -قال سافرنا مع رسول الله ﷺ ونحن صيام، فنزلنا منزلا، فقال رسول الله ﷺ: "إنكم قد دنوتم من عدوكم، والفطر أقوى لكم" وكانت رخصة، فمنا من صام، ومنا من أفطر، ثم نزلنا منزلا آخر، فقال: "إنكم مصبحو عدوكم، والفطر أقوى لكم، فأفطروا" فكانت عزيمة، فافطرنا[52].

ووافى العباس بن عبد المطلب رسول الله ﷺ بالجحفة مسلماً وسار مع المسلمين، ولما نزل رسول الله ﷺ والمسلمون مر الظهران عشاء أمر أصحابه أن يوقدوا عشرة آلاف نار.

وفي تلك الليلة خرج أبو سفيان وحكيم بن حزام ولقيا في الطريق بديل بن ورقاء فأخذوا يتحسسون الأخبار، وينظرون هل يجدون خبراً، أو يسمعون به، فلما بلغوا مر الظهران، وذلك عشيا رأوا العسكر والقباب والنيران كأنها نيران عرفة، وسمعوا صهيل الخيل، ورغاء الأبل، فأفزعهم ذلك فزعاً شديداً، فقال بديل بن ورقاء:هؤلاء بنو عمرو يعني بها خزاعة حمشتها الحرب، فقال أبو سفيان: بنو عمرو أقل من ذلك.

وعثر بهم العباس فأخذهم إلى الرسول ﷺ ولما دخل عليه قال: يا رسول الله! أبو سفيان بن حرب، وحكيم بن حزام، وبديل بن ورقاء قد أجرتهم، وهم يدخلون عليك، فقال رسول الله ﷺ: "أدخلهم" فدخلوا عليه، فمكثوا عنده عامة الليل يستخبرهم رسول الله ﷺ ودعاهم إلى الاسلام، فقالوا: نشهد أن لا إله إلا الله، فقال رسول الله ﷺ: "اشهدوا أن لا اله الا الله وأني رسول الله"، فشهد بديل، وحكيم بن حزام، وقال: أبو سفيان: ما أعلم ذلك، والله إن في النفس من هذا لشئ بعد، فارجئها.

فقال رسول الله ﷺ: "اذهب به يا عباس إلى رحلك، فإذا أصبحت فاتني به"، فذهب به العباس وجاء به في الصباح فقال له رسول الله: "يا أبا سفيان! ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله؟! قال: بأبي أنت وأمي!! ما أحلمك وأكرمك وأعظم عفوك! إنه لو كان مع الله إله لقد أغنى عني شيئا بعد، لقد استنصرت إلهي، واستنصرتَ إلهك، فوالله ما لقيتك من مرة، إلا نصرت علي، فلو كان إلهي محقا وإلهك مبطلا لقد غلبتك، فقال: "ويحك يا أبا سفيان! ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله؟ قال:

بأبي أنت وأمي! ما أحلمك وأكرمك وأعظم عفوك! أما هذه فوالله إن في النفس منها شيئا حتى الآن، فقال العباس: ويحك! أسلم قبل أن تضرب عنقك فشهد شهادة الحق، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله.

ثم قال أبو سفيان وحكيم بن حزام: يا رسول الله جئت بأوباش الناس من يعرف ومن لا يعرف إلى أهلك وعشيرتك! فقال رسول الله ﷺ: "أنتم أظلم وأفجر، قد غدرتم بعهد الحديبية، وظاهرتم على بني كعب بالإثم والعدوان في حرم الله تعالى وأمنه" فقالا: صدقت يا رسول الله، ثم قالا: يا رسول الله! ادع الناس بالأمان، أرأيت إن اعتزلت قريش وكفت أيديها آمنون هم؟ فقال رسول الله ﷺ: "نعم" قال العباس: يا رسول الله!! قد عرفت أبا سفيان وجه الشرف والفخر، فاجعل له شيئا، فقال: "من دخل دار أبي سفيان فهو آمن" فقال: وما تسع داري؟ فقال: ومن دخل المسجد فهو آمن" فقال أبو سفيان: وما يسع المسجد؟ قال: "من أغلق بابه فهو آمن" فقال أبو سفيان: هذه واسعة[53].

ثم قال العباس لأبي سفيان: أنج ويحك فأدرك قومك قبل أن يدخل عليهم رسول الله ﷺ فخرج أبو سفيان، فتقدم الناس كلهم حتى دخل مكة من كداء فصرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش، هذا محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم به، أسلموا تسلموا، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، قالوا: قاتلك الله! وما تغني دارك؟! قال: ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن[54].

دخول المسلمين مكة:

وزع رسول الله ﷺ الرايات على القادة وأمرهم أن يكفوا أيديهم، ولا يقاتلوا إلا من قاتلهم، غير أن صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو دعوا إلى قتال رسول الله ﷺ فانضم إليهم أناس من قريش وبني بكر وهذيل، ولبسوا السلاح يقسمون بالله لا يدخلها محمد عنوة أبدا، فلما دخل خالد بن الوليد وكان أحد القادة الذين أمرهم الرسول ﷺ بدخول مكة من أسفلها، منعوه الدخول وشهروا له السلاح، ورموه بالنبل، وقالوا: لا تدخلها عنوة، فصاح في أصحابه، فقاتلهم وقتل منهم أربعة وعشرون رجلا[55].

فلما رأى رسول الله ﷺ بارقة السيوف قال: "ما هذه البارقة؟! ألم أنه عن القتال؟ " قالوا: يا رسول الله، خالد بن الوليد قوتل ولو لم يقاتل ما قاتل، وما كان يا رسول الله ليعصيك، ولا يخالف أمرك، فقال رسول الله ﷺ: " قضاء الله خير"[56].

ولم يحدث غير هذا القتال، فدخل رسول الله ﷺ مكة في السابع عشر من شهر رمضان من السنة الثامنة للهجرة[57]، وكان أهلها ينتظرون حكم الرسول ﷺ فيهم ولكنه أظهر من الحلم والكرم ما لا يوصف حين قال لهم وبكل هدوء: "اذهبوا فأنتم الطلقاء"[58].

الخاتمة

لقد حاولنا في هذا البحث المختصر أن نستجلي الفوائد الكبيرة التي عادت على الدعوة الإسلامية من صلح الحديبية، وقد تبين لنا أن هذا الصلح يمثل أنموذجاً رائعاً لاستشراف الرسول ﷺ للمستقبل، وما يتميز به الرسول ﷺ – بتوفيق الله عز وجل-من سياسة وحنكة في السلم كما في الحرب، فقد تنازل الرسول ﷺ في هذا الصلح عن القليل للحصول على الكثير، وتنازل عن العاجل المهم للحصول على الآجل الأهم.

وما بدا للمسلمين ضعفاً كان في الحقيقة قوة لهم، وحين ظنوا أنهم يبتعدون عن مكة لفترة مؤقتة لم يدركوا أنهم يقتربون منها أكثر فأكثر ليفتحوها فتحاً دائماً فقد كان الرسول ﷺ يقرأ الأحداث قراءة الحصيف اللبيب الذي يعلم ما في تحييد قريش زعيمة العرب دينياً من فوائد جمة على الدولة الإسلامية دعوياً وعسكرياً من حيث إنه يفتح لها باب الدعوة على مصراعيه دون تدخل من قريش، وبذلك يصل هذا الدين إلى القلوب والعقول التي ستسارع للدخول في هذا الدين أفواجاً، وقد كان ذلك فعلاً.

كما أن هذا الصلح يعني أن تتنازل قريش عن حلفائها في غزوة الخندق (يهود خيبر وبعض القبائل العربية)، وبذلك يمكن للمسلمين أن يقوموا بكسر شوكة أولئك الذين حاولوا القضاء على الدولة الإسلامية.

وبذلك كان الرسول ﷺ يدرك أن فتح مكة ما هو إلا مسألة وقت، فإذا أصرت قريش على عنادها ولم تدخل الإسلام في فترة الهدنة، فهي إما أن تقوم بخرقها في فترة الهدنة (وهو أمر متوقع)، وإما أن يرفض المسلمون تمديد الهدنة بعد عشر سنوات، وحينها يكون المسلمون قد قويت شوكتهم وضعفت قريش أشد الضعف مما يسهل القضاء عليهم وفتح مكة المكرمة التي كان المسلمون أحق بها.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الهوامش :

1 صحيح السيرة النبوية، إبراهيم العلي ص351
2 مرويات غزوة الخندق، د.إبراهيم المدخلي ص112-113
3 السيرة النبوية: عرض وقائع وتحليل أحداث، د/الصلابي ص687

4 للاطلاع على تفاصيل غزوة الأحزاب انظر: الطبقات الكبرى، ابن سعد 2/47-53، تاريخ الإسلام (المغازي)، الذهبي 283-305، البداية والنهاية، ابن كثير 4/108-134، مرويات غزوة الخندق، د.إبراهيم المدخلي.
5 السيرة النبوية، ابن هشام 24/4
6 العوذ جمع عائذ وهي الناقة إذا وضعت وبعدما تضع أياما حتى يقوى ولدها والمطافيل جمع مطفل وهي الناقة معها فصيلها، انظر: غريب الحديث، ابن الجوزي 143/2
7 السيرة النبوية، ابن هشام 25/4
8 انظر: السيرة النبوية، ابن هشام 25/4، البداية والنهاية، ابن كثير 191/4
9 السيرة النبوية، ابن هشام 26/4
10 البداية والنهاية، ابن كثير 192/4
11 السيرة النبوية، ابن هشام 4/26-27
12 المرجع السابق
13 السيرة النبوية، ابن هشام 29/4
14 السيرة النبوية لابن كثير 313/3
15 انظر: فقه السيرة النبوية، البوطي ص235
16 السيرة النبوية، ابن هشام 28/4
17 الخصائص الكبرى، السيوطي 408/1
18 انظر: السيرة النبوية، ابن هشام 31/4
19 سبل الهدى والرشاد، في سيرة خير العباد، الصالحي 5/189-195، وانظر: تاريخ الإسلام (المغازي)، الذهبي 459-463
20 السيرة النبوية لابن كثير 313/3
21 الرحيق المختوم للمباركفوري 281
22 السفارات النبوية، د.محمد العقيلي ص15
23 الطبقات الكبرى، ابن سعد 15/2
24 انظر: الرحيق المختوم المباركفوري 308/1
25 للاطلاع على نص الكتاب، انظر: السيرة النبوية لابن كثير 508/3
26 للاطلاع على نص الكتاب، انظر: السيرة النبوية لابن كثير 501/3
27 انظر القصة كاملة في صحيح البخاري 1657/4
28 للاطلاع على نص الكتاب، انظر: السيرة النبوية لابن كثير 41/2
29 للاطلاع على نص كتاب النجاشي، انظر: الرحيق المختوم للمباركفوري 314/1
30 للاطلاع على نص الكتاب، انظر: زاد المعاد في هدي خير العباد لابن القيم 600/3، وانظر: نصب الراية للزيلعي 501/4.
31 للاطلاع على نص كتاب المقوقس، انظر: الرحيق المختوم للمباركفوري 315/1
32 الرحيق المختوم للمباركفوري 320/1
33 ذكر الواقدي أن إرسال عمرو بن العاص إلى ملكي عمان كان في السنة الثامنة، ولكنه لم يحدد هل كان قبل فتح مكة أم بعده، والأظهر أنه قبله إذ لا يذكر لعمرو أي دور في فتح مكة، انظر: السيرة النبوية لابن كثير 710/3
34 الرحيق المختوم للمباركفوري 322/1
35 السيرة النبوية لابن هشام 321/2
36 انظر قصة إسلامهم في الخصائص الكبرى للسيوطي 1/417-419
37 الرحيق المختوم للمباركفوري 312/1
38 للاستزادة من تفاصيل هذه الغزوة انظر كتب السيرة.
39 مرويات غزوة الخندق، د.إبراهيم المدخلي ص112-113
40 لمعرفة تفاصيل تلك السرايا انظر: تاريخ الإسلام (المغازي)، للذهبي 446-457، البداية والنهاية، لابن كثير 2/254-260
41 لباب النقول، السيوطي 193/1، وانظر: الجامع الصحيح، الربيع بن حبيب، حديث رقم:10
42 المستدرك على الصحيحين، الحاكم 143/2
43 فقه السيرة النبوية، د.البوطي ص233-234
44 الرحيق المختوم للمباركفوري 308/1
45 الجامع الصحيح، البخاري 1657/4
46 سير أعلام النبلاء، الذهبي 417/3
47 انظر: السيرة النبوية، ابن هشام 4/84-86
48 الروض الأنف، السهيلي 86/4
49 المغازي، الواقدي 880/2
50 السيرة النبوية، ابن هشام 4/86-87
51 المرجع السابق 4/87-87
52 الجامع الصحيح، مسلم بن الحجاج، حديث:2680
53 البداية والنهاية، ابن كثير 333/4
54 السيرة النبوية، ابن هشام 4/90-91
55 المغازي، الواقدي 875/3
56 سبل الهدى والرشاد، الصالحي 229/5
57 انظر: تاريخ الإسلام (المغازي)، الذهبي 535.
58 البداية والنهاية، ابن كثير 344/4، وانظر: السيرة النبوية، ابن هشام 4/93-94